آراء واقوال لعظماء العصر

هو من برنشتين من اشهر الصحافيين الاميركيين في مقابلة العظماء وحادثتهم وقد نشر في مجلة «الانترنشونال بوك رفيو» الاميركية مقالا شائقاً ضمنه كثيراً من آراء العظماء الذين قابلهم ومنهم برنارد شو وتولستوي وبرغسن وهيفلوك الس . فاقتطفنا منه ما يلي :

قال المكاتب : قضيت خمس عشرة سنة مندوباً خاصًّا لصحف مختلفة قابلت في اثنائها اشهر مشهوري عصري وحادثتهم. وبعض هؤلاء المشهورين كان من الذين ترفعهم الصدف الى اوج الشهرة فيضفو ثوب مجدهم على حقيقتهم ثم تنقضي ايام قلائل فيهبطون من مقامهم الرفيع كانهم نجم من النجوم المتغيرة نراها وقد سطع نورها في الفضاء ثم لا تلبث ان يضعف نورها رويداً رويداً حتى تتلاشى او تنحط الى كواكب القدر السادس عشر او ما دونهُ فلا نرى الاَّ بالتلسكوب لصغرها. ومن هؤلاء المشهورين افراد اجتزت الوف الاميال لاقابل احدهم واتحدث اليهِ لان تفوّقهم في الفن او العلم او الادارة يصيب الصراف من اصولهِ ويبقى اثرهُ في الحضارة مئات من السنين بعد موتهم

وقد اتيح لي ان اجتمع بكل رجل — تقريباً — لهُ اثر في افكار الناس او يد في تسيير حوادث التاريخ في هذا العصر . لقيتهم في معاملهم ومكاتبهم وبيوتهم فاخذتني نشوة السرور لان من هذه الاماكن تسطع انوار الفكر وتنبثق مبادئ العمل فتهتدي بها الانسانية وتجري بمقتضاها

قابلت متشنيكوف فبسط لي اكثر المذاهب العلمية العصرية. وتحدثت الى تولستوي في اصول الدين وقواعد الفن واجتمعت ببرغسن فلخص امامي احدث الآراء الفلسفية ورأيهُ في « النشوء المبدع » على وجهٍ خاص . وحدثني الكونت ويت عن السياسة العالمية بوجهٍ عام وسياسة روسيا الخارجية بوجهٍ خاص ورودان عن الفن وهيفلوك الس عن حقوق النساء ومكسيميليان هاردن عن التوسع الاستعماري في المانيا والبابا بنديكتوس عن سياسة الفاتيكان ازاء السلم والحرب ونوردو وزانغويل عن الصهيونية وتروتسكي عن البلشفية واللورد روبرت سسل عن احرار بريطانيا والمركز اوكوما عن البلشفية في اليابان وبرنارد شو عن كل ما يشغل ذهن المتعلم في هذا العصر

أرهم لي نفسي

وقد سألني كثيرون من معارفي واصدقائي عما كان يخالجني من الشعور حين الاجتماع بهؤلاء النوابغ وجوابي عن هذا السؤال : ان الاجتماع ببعضهم يثير الفكر كأنهُ سوط يلهبهُ ويحملهُ على التفكير والابداع . والاجتماع بالبعض الآخر يطمئن نفسي كأنك امام الشمس حين غروبها تنير الفضاء والارض بنور ضعيف والنهار على وشك الزوال. وهذا الشعور الاخير تملكني في حضرة تولستوي . ولما كنت في محل احد العلماء نسيت الارض وما عليها لما حملني العالم معهُ عن اعجوبة الحياة والحقيقة فرأيتها في عمقهما ورأي الدين وتصورتها بمخيلتنا عجائب الحياة واسرارها .واراني احد الكتاب ان الحياة تشبه تمثيلاً هزلي مقامهُ فيها مقام الماجن . ان بين هؤلاء رجالاً تتفجر منهم ينابيع الثورة فينفونها الى ابناء عصرهم كأنها قبس من قوى الكهربائية تستعمل لنسف الجبال وهم كديناميو الذي يولدها والاسلاك التي تنقلها وبينهم من هو رسول سلام او زعيم مذهب تفاؤم يبشر بذوره فيما يلقيهِ من الخطب او ينشرهُ من الكتابات.

تولستوي

زرت الكونت ليو تولستوي الحكيم الروسي الشهير في يونيو سنة ١٩٠٨ فقال لي: « ان مدرسة الادب الحديثة في روسيا التي رثى غيرها من البلدان قائمة على الصور الخارجة والاحتفاظ الفني والادبي . قلما تجد من اقرأ بوشكين او غوغل من معاصريه حالاً ودعة هامسر عظمتي وجمع اطلاعي ما يكتبهُ الكتاب الآن بالاشارة [illegible]

[illegible] حين اجتماع جماعة الاوستغراديين [illegible] الاوستغرادي [illegible] حين صار الجمهور ملجأ المفكرين في عقولهم الجبارة ان يبدعوا ما يهيئ [illegible] فوائد تلك الصفات الممتازة التي تجعل الاثر الفني خالداً مدى العصور.

برنارد شو

وزرت برنارد شو في لندن فقال لي حين الكلام على المطالعة وفوائدها :

«يجب ان نعنى عناية خاصة بالكتب التي نسلمها للراشدين من ابنائنا لاننا اذا سلمناهم كتباً لا يصح لهم الاطلاع عليها فسدوا . واما الاطفال فليس ما يمنع ان يقرأوا كلَّ شيء الى السنة السادسة عشرة من عمرهم . واما متى اجتازوا السنة السادسة عشرة فيجب ان تبذل عناية خاصة في اختيار الكتب التي يطالعونها

رأيه في التعليم والمدارس

«اننا نقترف اكبر الجنايات ضدّ اولادنا بتربيتهم كما تربيهم الآن لان نظام المدارس الحالي نظام فاسد . ان شوارع المدن الكبيرة وشوارع القرى الصغيرة يجب ان تكون المدارس التي ينال فيها اولادنا نصيباً من التعليم والتهذيب . وعليه يجب ان تكون جميلة بكل ما في الجمال من معاني التثقيف . فالشوارع هي مدرسة الحياة الحقيقية . ويحق للاولاد ان يمنحوا كفاية من المال ليتعلموا قيمتهُ ووجوه الفائدة من انفاقه . فاذا لم يكن اهلوهم في سعة من العيش فلتمنحهم الحكومة هذا المال فهو خير من الاموال الطائلة التي تمنحها معاشات للعجزة والمتقدمين في السن

فقلت : ولكن كيف يستطيع هؤلاء الشيوخ ان يعيشوا متى تجاوزوا سنًّا لا يستطيعون معهُ العمل والاوزاق

فقال وبسمة تعلو ثغرهُ : اذا اصبح الشيوخ غير قادرين على العمل فليقتلوا . ان المشكلة العظيمة التي نواجهها هي مشكلة تنشئة الصغار وتعليمهم لا العناية بالكبار العاجزين . والوالدون في هذا العصر يرون ان تربية الصغار شرٌّ لا مندوحة عنهُ لانهم يريدون ان يكونوا احراراً يسعون وراء ما يسرّهم وعليه تراهم يعثون بهم الى المدارس . هناك يجد الاطفال اشخاصاً يقال لهم « معلمون » وكأنهم قطعُ سيارة صنعت كلها في معمل واحد فيسلّمونهم كتباً لا تفيدهم شيئاً في تثقيف العقل او تهذيب النفس تدعى « كتب مدرسية » وكذلك يترك هؤلاء الاطفال في عناية رجال ونساء لا يعلمون ان يديروا امورهم الخاصة فكيف بهم في ادارة شؤون تلاميذهم

رأيه في الدين

ثم ابدى رأيهُ في الدين فقال : هذا كل ما اعلم — ان الرجال الذين لا دين لهم هم رجال استولى عليهم الضعف الادبي وفي الغالب الضعف الجسدي ايضاً . لا بدَّ للحضارة من الدين مهما اختلفت الآراء في تسمية القوة الازلية التي تدير هذا الكون . سمها قوة الحياة او روح العالم او الدافع الحيوي او النشوء المبدع . او سمها ما شئت فان

الحياة من غير الدين تصبح سلسلة متتابعة من الحوادث لا معنى لها ولا رابط بين حلقاتها . قد استطيع ان اتصوّر « خلاصاً » روحيًّا » من غير اله ولكني لا استطيع ان اتصوّرهُ من غير دين وتدين

برغسن

وقابلت برغسن في باريس سنة ١٩١٢ فقال : « الاميركيون قوم يقدمون الطرق العملية في الحياة على كل شيء آخر وهم يطلبون نظماً معينة للتصرف والا داب يتخذونها قاعدة ويجرون عليها . ومن الغريب ان يهمل الفلاسفة المحدثون هذه النزعة القوية في شعب حيّ نشيط. لقد وضع ليبنتز وغيرهُ من الفلاسفة نظماً ادبية ولكنها بنيت على قواعد عامة يصعب تطبيقها على كل حوادث الحياة اليومية تطبيقاً دقيقاً. حتى « كانت » كان يحوطهُ كثير من الابهام في كتاباته بل في آية مؤلفاته « نقد العقل المجرد » فقد قال : « اعمل دائماً ما يصح ان يكون ناموساً عامًّا » وهذه قاعدة يصعب تطبيقها كلّ يوم . كيف تطبقها على ما يشجر بين المتمولين والعمال من خلاف . كلٌّ من الفريقين يعمل ما يودّ ان يراهُ قانوناً شاملاً لانظمة الاجتماع فكيف نعرف أي الفريقين على صواب وايهما على خطأ

خلود العقل

« لقد تناولت في مباحثي امراض العقل والذاكرة بالدرس والتحليل . وبحثت في حوادث كثيرة رأيت فيها علاقة واضحة بين العقل والذاكرة . وقد خرجت من هذه المباحث بانهُ من الخطأ ان نحسب عمل العقل وعمل الدماغ واحداً . فجانب صغير من اعمال العقل يقوم به الدماغ حتى كأنّ العقل بلاد شاسعة الارجاء والدماغ احدى ولاياتها . العمل الذي يقوم به العقل اكثر اتساعاً وشمولاً من العمل الذي يقوم به الدماغ

« ان موت الدماغ امر مرجح . ولكن قد ثبت لي ان العقل يبقى حيًّا بعد موت الدماغ . وعليه استنتجت على ان العقل يبقى حيًّا بعد موت الجسد . ولا استطيع ان أبتّ الآن في ان العقل خالد ولكن يرجح لي انهُ كذلك

ذكاء الرجال والنساء

« ولم اجد في كل مباحثي ان الرجل يتفوق على المرأة عقلاً وذكاء . فان المجال لم

ينفسح بعد امام النساء للاشتغال بالمباحث الفلسفية والابداع فيها . ولما كنت التي محاضراتي على الشبان والشابات جربت تجارب مختلفة لمعرفة الفرق بين الفريقين من حيث توقد الذكاء فكنت اعطي نفراً من الشابات والشبان موضوعاً فلسفيًّا واحداً للكتابة ولدى فحص هذه الكتابات كان يتعذر عليَّ ان اعرف ايها كتبهُ شابة وايها كتبهُ شاب . وعليه اعتقد أن لا فرق بينهما ولا اجد مانعاً ما يمنع السيدات من ان تضع مؤلفات فلسفية من طبقة مؤلفات الرجال

« وقد وجدت فروقاً واضحة في المستوى العقلي بين الاجناس المختلفة — البيض والصفر والسود . ولكني لم اجد فرقاً ما من هذا القبيل بين الامم المختلفة التي تنتمي الى الجنس الابيض . والامم تقتبس الصفات التي تتصف بها الشعوب التي تخالطها وعلى هذا نرى ان الفروق الشعبية بين الامم المختلفة قائمة في الغالب على العادة وطريقة التعليم والتهذيب. ومن الاغاليط الفادحة ان يُحسب سبب كثير من هذه الفروق عائداً الى الطبع البشري مع انهُ في الغالب تطبع ناتج عن العادة والاقتباس

هفيلوك السن

وسألت هيفلوك إلس عن رأيهِ فيما للنساء من الاثر في الفن الحديث والادب الحديث فقال : ارى ان رواية واحدة من الطبقة العليا تكتبها امرأة افعل من كل الرسائل السياسية وغير السياسية التي تتخذها جماعة النساء لرفع منزلتهنَّ في الدوائر الاجتماعية والسياسية . ولكني ارى نساء كثيرات تصرف الى معالجة الفنون على اختلافها مع ان لا [illegible] شأناً في [illegible] ينفقن حياتهنَّ عبثاً لانهُ ارى انهُ ليس للنساء استعداد خاصٌّ للابداع في الفنون مع ان بعضهنَّ كتب روايات لا بأس بها . ولكنَّ امامهنَّ مجالاً منسعاً يستطعن ان يبرزن فيهِ ويُظهرن اسمى ما وهبهُ من السجايا — اريد الاصلاح الاجتماعي وعمل الخير بفروعها المختلفة . وهذا العمل اكبر شأناً وابعد اثراً في المجتمع من معالجة الفنون . ومهما قيل في الفن فهو من الكماليات

قال المكاتب : أتحسب ان آيات الفن الكبرى امور كمالية

كلاَّ : لا اذهب الى هذا الحدِّ البعيد في قولي ولكني اذا وضعت في احدى كفتي الميزان بيتاً يرضهُ لاك الصحة والسعادة وفي الكفة الاخرى رواية لا بأس بها لرجح الاول والثاني